إضاءات نقدية (مقالة محكمة)
السنة الرابعة عشرة ـ العدد الرابع والخمسون ـ صيف ١٤٠٣ش / حزيران ٢٠٢٤م

صص ٥٥ ـ ٧٧

مظاهر المقاومة فی شعر معروف رفیق؛ دیوان *"فلسطین.. الجرح والطریق"* نموذجا

حامد پورحشمتی (الکاتب المسؤول)*
صدف پورشیرینی آق مسجد**

الملخص

شعر المقاومة لم یکن مجرّد تعبیر فنّیّ، بل أداة سیاسیّة واجتماعیّة لتحریک الوعی الجماعیّ أیضاً. یندرج فی ضمن شـــعراء المقاومة اسم الشاعر الفلسطینیّ معروف رفیق؛ فتجسّد أشعاره عناصر أدب المقاومة الفلسطینیّة فی أشکال مختلفة وتدلّ دلالاتها علی أنّه جزء من حرکة أدبیّة وسیاسیّة واسعة تهدف إلی تعزیز مدی النضال فی فلسطین المحتلّة. یُعرف شعر معروف رفیق بأدب ملتزم بالقضایا الوطنیّة، ویعکس معاناة الشعب وتطلّعاته نحو الحرّیة والاستقلال؛ فسیؤدّی تحلیل مضامین شعره إلی عرض مدی میله العمیق إلی تصویر جوانب احتلال فلسطین وثبات أبناء وطنه الفلسطینیین فی ساحات النضال. تهدف هذه الدراسة الّتی تعتمد علی المنهج الوصفیّ – التحلیلیّ، إلی استکشاف أبرز مظاهر المقاومة وتحلیلها فی دیوانه الموسوم بـ"فلسطین.. الجرح والطریق" وتشیر نتائج البحث إلی أن الشاعر یرکّز فی أشعاره علی أبرز التحدّیات الّتی تواجه موطنه ویصورّها بأشکال مختلفة نحو استدعاء فلسطین المحتلّة، واستلزام تحقّق الوحدة العربیّة الکبری، وضرورة الجهاد للدفاع عن الوطن ومواجهة العدوّ، وتکریم الشهداء، بالإضافة إلی رفض السیاسة الانقیادیة للشرق والغرب بحیث إنّ کلّ ذلک یمکن أن یشکّل إلی حدّ بعید الأسس الجوهریّة لشعره المقاوم.

الکلمات الدلیلیة: شعر المقاومة، فلسطین، معروف رفیق، دیوان "فلسطین.. الجرح والطریق"، مظاهر المقاومة.

*. أستاذ مساعد فی قسم اللغة العربیة وآدابها، جامعة کیلان، کیلان، إیران
poorheshmati@guilan.ac.ir

**. خرّیجة ماجستیر فی فرع اللغة العربیّة وآدابها، جامعة کیلان، کیلان، رشت، إیران

تاریخ الاستلام: ١٤٤٦/١٢/٠٨ق تاریخ القبول: ١٤٤٧/٠١/٢١ق

المقدّمة

أدب المقاومـــة أحد أبرز المظاهر النابضة فى الأدب العالمىّ؛ إذ يمتلک تأريخاً عريقاً ومكانة رفيعة تســـتند إلى قيم ومعتقدات جوهريّة؛ فهو من الركائز الثقافيّة الأساسيّة، ومن أبرز سمات النهضة السياســـيّة والاجتماعيّة لأىّ أمّة، حيث يلعب دوراً مهمّاً فى تشـــكيل الوعى العامّ، وتحفيز الحركات التحرّريّة، ومقاومة الاستبداد. إلى جانب ذلک فإنّه يحمل قيماً فنّيّة وجماليّة عميقة (پورحشمتى وروشنفكر، ١٣٩٩ش: ١٢٨)؛ إذ يُجسِّد بأبهى صورة أدبيّة تضحيات الأمة ومفاخرها ونضالاتها. شعر المقاومة أحد أبرز الفروع الأدبيّة الّتى نشـــأت نتيجة للصراعات السياســـيّة والاجتماعيّة حيث يُعبّر عن رفض الظلم والاستبداد ويعكس تطلّعات الشعوب نحو الحرّيّة والاستقلال. لقد لعب هذا النوع من الأدب دوراً محوريّاً فى توثيق معاناة الشـــعوب المقهورة وتحفيزها على النضال ممّا جعله ظاهرة أدبيّة تســـتحقّ الدراسة والتحليل. يُعرف شعر المقاومة بأنّه كلّ إنتاج أدبىّ يُجسّـــد روح الصمود والتحدّى، سواء كان ذلک فى شكل مقاومة عسكريّة أو سياسيّة أو ثقافيّة أو فكريّة.

تبرز أعمال العديد من الشـــعراء الّذين كرّسوا كتاباتهم لنقل معاناة شعوبهم وتعزيز روح المقاومة، ومن بينهم الشـــاعر الفلســـطينىّ معروف رفيق الّذى عكس فى ديوانه "فلسطين.. الجرح والطريق" ملامح الصمود الفلسطينىّ فى وجه الاحتلال والاضطهاد. تُمثّـــل قصائده نموذجاً بارزاً لأدب المقاومة حيث تحمـــل فى طيّاتها مضامين تدعو إلى الحريّة، وتُمجّد تضحيات الشهداء، وتنتقد سياسات الهيمنة والاستعمار. إنّ هذا الديوان يزيل الستار عن جانب محورىّ من شعر شاعر فلسطينى يمارس تصوير استقلال فلسطين وثبات أبنائها فى ســـاحة القتال ويبدى مدى تمسّكه بفكرة استقلال فلسطين كمركزيّة فى إنتاجه الأدبىّ. يحمل شعره رؤية مستقبليّة متفائلة ساعية إلى تعزيز الأمل والتصميم لدى الجمهور ويحظى بجانب بطولىّ يتمّ فيه تصوير الشعب الفلسطينىّ المقاوم كمجموعة مـــن الأبطال الّذين يقاومون الظلم ولا يطيقونه؛ فيمكن أن تُفهم فكرة المقاومة فى هذا الديوان على مستويين شـــاملين: المستوى المادىّ يعود إلى المقاومة المسلّحة أو المدنيّة الّتى تختصّ ببذل الجهود لتحرير الأرض من الاحتلال وتتناول موضوعات مثل البطولة،

والتضحیة، والکفاح المسلّح، ممّا یکرّس الروح القتالیّة لدی الجمهور. والمستوی المعنویّ هو الصمود النفسیّ والثقافیّ الّذی یعزّز الروح المعنویّة للشعب ویساعد فی الحفاظ علی الذاکرة الجماعیّة عندهم، بعبارة أخری یشیر إلی قدرة الأفراد والمجتمعات علی الحفاظ علی معنویّاتهم وقوّتهم الداخلیّة فی مواجهة الظروف الصعبة. یتناول هذا الجانب موضوعات مثل الأمل، والإصرار، والتحدّی، ویکون وسیلة لتعزیز الروح المعنویّة للشعب، ممّا یساعدهم علی الاستمرار فی النضال رغم التحدّیات وکذلک یومئ إلی الحفاظ علی الهویّة والتراث الفلسطینیّ فی مواجهة محاولات الطمس والتهوید للحفاظ علی الثقافة الفلسطینیّة ونقلها إلی الأجیال القادمة. یستخدم معروف رفیق فی دیوانه لغة بسیطة لفهم أسالیبه الأدبیّة واللغویّة، لکنّها عمیقة ومؤثّرة فی تحفیز الجمهور وتعزیز روح المقاومة وکذلک تعزیز الوحدة الوطنیّة وکیفیة تفاعلها مع العالم العربیّ ممّا یساهم فی تشکیل صورة القضیة الفلسطینیّة علی المستوی الدولیّ ویقوم بتذکیر الشعب بأهدافه المشترکة.

أهمیّة البحث

تکمن أهمیّة الدراسة وضرورتها فی تحلیل أبرز مظاهر المقاومة فی دیوان معروف رفیق معتمدة علی منهج وصفیّ – تحلیلیّ یمتاز بقدرة فائقة علی وصف الظاهرة الأدبیة وإبداء المیزات الأدبیة من فکریّة وفنیّة وجمالیّة؛ فیستعرض البحث مظاهر المقاومة الرئیسة فی شعر معروف رفیق، ویبیّن مدی تأثیره فی تشکیل وعی القارئ وتوثیق الذاکرة الجماعیّة للشعب الفلسطینیّ؛ فمن خلال ذلک تسلّط الدراسة الضوء علی الأبعاد الجمالیّة والفکریّة الّتی تجعل من أدب المقاومة أداة فعّالة فی تعزیز الهویّة الوطنیّة والتصدّی لسیاسات التهمیش والقمع.

أسئلة البحث

۱. ما أبرز مظاهر المقاومة فی دیوان "فلسطین.. الجرح والطریق" لمعروف رفیق؟
۲. ما الأفکار والدوافع والأغراض الّتی یسعی الشاعر إلی إیصالها من خلال تجسید کلّ عنصر من عناصر الصمود والمقاومة فی دیوانه؟

خلفيّة البحث

دراسة مظاهر المقاومة من المواضيع الهامّة الّتى تمسّک بها الشعراء المعاصرون كثيراً وتوجد بحوث عديدة فى هذا المجال على نحو كتاب «الأدب الفلسطينى المقاوم تحت الاحتلال ١٩٤٨ – ١٩٦٨» لغسان كنفانى وكتاب «ملامح فى الأدب المقاوم – فلسطين نموذجاً» لحسين جمعة وكتاب «أدب المقاومة.. المفاهيم والمعطيات» للسيد نجم وكذلک كتاب «أدب المقاومة؛ بين الواقع والطموح» لمنيف أحمد حميدوش و... أمّا حول البحوث الّتى تعنى بشاعرنا معروف رفيق فى هذا المجال أو المجالات الأخرى فيجدر بالذكر أنّه لم يتمّ حتّى الآن إجراء بحث ملحوظ فى شعره؛ لذلک يمكن أن تكون هذه الدراسة من الخطوات الأولى فى التعرّف إلى خصائصه الشعريّة، خاصّة فى مجال أدب المقاومة.

الشعر الفلسطينىّ المقاوم

لقد عكس الشعر العربىّ المعاصر من خلال كلماته الساحرة والنشيطة روح الشعب الفلسطينىّ وقدرته على الصمود والتحدّى وكان مصدر إلهام للأجيال الجديدة لمواصلة النضال من أجل الحرّية والعدالة. «فالشعر هو فنّ المقاومة فى لحظة حضور نادراً ما يتنبّأ بالكارثة وقليلاً ما يؤرّخ للهزيمة ولكنّه دائماً فى خطّ النار بل خطّ القتال الأوّل من الجبهة والشعر هو فنّ المقاومة بمعناها الوطنىّ.» (شكرى، ١٩٧٠م: ٣٥١) شعر المقاومة واحد من أبرز أشكال التعبير الأدبىّ الّذى يدوّى معاناة الشعب الفلسطينىّ ونضاله من أجل الحصول على الحرّية والاستقلال. شعر المقاومة هو الشعر الملتزم الّذى يصرّح بالحقائق دون تعقيد ويحمل فى خطابه هدفاً تعليميّاً (شيماء ويمينة، ٢٠١٩م: ٣٨)، فيعتبر هذا الشعر مرآة تعكس الواقع السياسىّ والاجتماعىّ لفلسطين، حيث يجسّد آمال الشعب وأحلامه، ويوثّق تأريخ المقاومة ضدّ الاحتلال الإسرائيلىّ.

يتميّز الشعر الفلسطينىّ المقاوم بقوّته العاطفيّة والرمزيّة، فيمكن أن يتبلور هذا التميّز فى شعر المقاومة فى عناصر أساسيّة تشمل «الإيمان بالشعب والثقة بقدرته على اجتثاث الظلم واليقين المطلق بانتصاره الآتى. يتميّز بتلوينه بين التمرّد وطلب الحرّيّة للوطن وللفرد كما تميّز شعر المقاومة بتكريم الشهادة وإبراز أهميّة التضحيات الّتى

قدّمها الشـــهداء لیکونوا منارة تشعل الطریق ویقتدی بها جیل کبیر هو جیل المقاومة.» (حلوانی، ۲۰۰۵م: ۲۱۵) لقد ظهر شعر المقاومة فی فلسطین کردّ فعل مباشر علی العدوّ الإســـرائیلیّ الّذی بدأ بشـــکل واضح بعد نکبة ۱۹٤۸م، والّتی أدّت إلی تهجیر مئات الآلاف من الفلسطینیین من دیارهم ومنذ ذلک الحین، أصبح الشعر وسیلة رئیسة للتعبیر عن الألم والفقدان، وکذلک لإلهام النضال والمقاومة. «شارک الأدباء فی کلّ الأحداث الوطنیّة ونظموا قصائدهم المقاومة الّتی تواجه المأســـاة وتفضح أســـالیب المحتلّ وتبثّ الوعـــی الوطنیّ بکلّ ما یجری ...» (جمعة، ۲۰۰۹م: ۷)؛ فقد برزت أسماء لامعة فی هذا المجال، مثل محمود درویش، سمیح القاســـم، وتوفیق زیاد، الّذین أصبحوا رموزاً وقوّاداً للشعر الفلسطینیّ المقاوم.

نبذة عن معروف رفیق

إنّ معروف رفیق شاعر فلســـطینیّ معاصر وُلد فی ۲۰ نوفمبر من سنة ۱۹۳۵م فی بلدة عنبتا. تلقّـــی تعلیمه فی طولکرم بالضفّة الغربیّة، ثم انتقل إلی بیروت حیث حصل علی درجة البکالوریوس فی القانون من جامعتها. عمل فی مجال التعلیم فی فلســـطین والأردن والمملکة العربیّة السعودیّة، ثمّ فی قطر حیث عمل أیضاً فی مجال الإعلام وتولّی مناصب رفیعة مثل رئاسة العلاقات العامّة ووزارة الداخلیّة. تمّ تعیینه فی قطر مستشاراً ثقافیّاً لخالد بن محمّد آل ثانی ومنحته الحکومة القطریّة الجنســـیّة تقدیراً لجهوده. یتمیّز شـــعر معروف رفیق بتأکیده علی قیم الصمود والانتماء للأرض العربیّة والقومیّة. إنّه لم یتســـامح مع العدوان علی فلســـطین؛ لذا تناول فی دیوانه "فلسطین الجرح والطریق" الصادر عام ۱۹۸۵م قضیّة فلســـطین، ودعا إلی الوحدة العربیّـــة الکبری، وأکّد علی ضرورة الجهاد، وتکریم الشـــهداء، ورفض الکفر، کما انتقد السیاسات العالمیّة وأشاد بدور الشـــخصیّات التأریخیّة فی مواقف قریبة من مبتغاه. له عدة دواوین شـــعریّة منها «ابتهالات» و«فلســـطین الجرح والطریق» و«بذور الکرامة» و«قطر علی شفة الوتر»، و«القدس قصیدتی» و«أشعار للفتیان والفتیات»، ومن کتبه: «فی الأمن والسلامة». نال جائزة نشید الکشـــاف من وزارة المعارف فی حکومة قطر وشهادة تقدیریّة من وزارة

الإعلام (إذاعة قطر) ووزارة الداخليّة القطريّة ونادى الجســـرة الثقافيّ القطرىّ ومركز شـــباب الدوحة كذلک حصل على الميدالية الذهبيّة لجائزة محمد إقبال. توفّى معروف رفيق يوم ٩ مايو ٢٠٠٥م فى الدوحة.

عناصر المقاومة فى ديوان "فلسطين.. الجرح والطريق"

أ: استدعاء فلسطين

فلسطين دولة إسلاميّة عاصمتها القدس، وهى أرض سكنها المسلمون والمسيحيّون واليهود على مرّ العصور. مع احتلال إسرائيل لفلسطين عام ١٩٤٨م، اندلعت صراعات ونزاعات مســـتمرّة بين الفلســـطينيين والإســـرائيليين، وعُرفت بالنزاع الفلسطينىّ – الإســـرائيلىّ، ولا تزال مســـتمرّة حتّى اليوم. فى حرب أخرى (حرب الأيام الستّة)، رفضت إسرائيل أىّ انسحاب من الأراضى الّتى احتلّتها، كما رفضت الاعتراف بحقوق الفلســـطينيين وعودة اللاجئين الفلسطينيين إلى وطنهم (المرعشلى والآخرون، ١٩٩٦م: ١٧٧). معروف رفيق كان دائماً يولى قضيّة فلســـطين اهتماماً خاصّاً حيث شكّلت هذه القضيّة جزءاً كبيراً من أشعاره فى دواوينه المختلفة، خاصّة فى ديوان "فلسطين.. الجرح والطريق"، الّذى يعكس فيه الشـــاعر معاناة الشعب الفلســـطينىّ، ويدعو إلى الصمود والمقاومة، ويؤكّد على وحدة الأرض العربيّة وضرورة التحرّر من الاحتلال:

فلسطين إنْ عاثَ فيكِ العدى وإنْ باتَ يسقيک كأس الردى
فصبراً إذا ما اســـتحرّ الفدا ملأنـــا ملأنا الرُّبـــا والبطاح
(رفيق، ٢٠١٣م: ٤٤٧)

يتحدّث الشـــاعر فى هذه الأبيـــات عن ضرورة صبر فلســـطين وثباتها فى وجه العدوان؛ فهو يخاطبها مباشرةً ويشـــير إلى أنّها تتعرّض للعدوان، لكنّه يوصيها بالصبر حين يشـــتدّ القتال (إذا ما استحرّ الفدا). ينتقل الشـــاعر إلى صورة أخرى تشير إلى المقاومة والتحدّى، حيث يوضّح أنّه حتّى لو سُقيت فلسطين كأس الموت (الردى)، فإنّ أبناءها يكثرون ويملؤون الجبال والســـهول بمشاركتهم النشيطة، ممّا يرمز إلى الانتفاضة الشعبيّة والاســـتمراريّة فى المقاومة. يشبّه الشـــاعر فى (عاثَ فيكِ العدى) العدوان

بالفســـاد أو التخریب حتّی یُجلی مدی الدمار الّذی یلحق بفلسطین. هذا وقد استخدم الشاعر فی صورة (یســـقیک کأس الردی) استعارة تشیر إلی الموت أو الدمار؛ إذ یتمّ فیها تصویر العدوان علی أنّه ســـقایة لفلســـطین بکأس الموت. یعمل معروف رفیق فی البیت الثانی مثل عدید من الشـــعراء بختم القصیدة بالبشـــارة بالانتصار والفرج لیمنح شعبه الأمل والثقة؛ فجاء بجملة (ملأنا الرُّبا والبطاح) لیعرض صورة الامتلاء والقوّة عند للمقاتلین الّذین ســـیعیدون تحریر الأرض المحتلّة ویملؤون أراضیها بالصمود والمقاومة؛ لذلـــک یتمّ تکرار فعل (ملأنا) تکراراً لفظیّاً یهدف إلی تأکید حتمیّة وقوع الحدث؛ لأنّ «التکرار یسلّط الضوء علی نقطة حسّاسة فی العبارة ویکشف عن اهتمام المتکلّم بها...، یضع بین أینا مفتاحاً للفکرة المتسلّطة علی الشاعر وهو بذلک أحد الأضواء اللاشعوریّة الّتی یسلّطها الشعر علی أعماق الشاعر فیضیئها بحیث نطّلع علیها» (الملائکة، ١٩٨١م: ٢٧٧و٢٧٦)، فجاء تکرار فعل (ملأنا) للکشـــف عن النقطة الحسّاســـة فی الشعر وهی النجاح والانتصار أمام الأعداء.

یعکس الشاعر رؤیة شعریّة مفعمة بالأمل فی فلسطین رغم ظروفها القاسیة، فیسعی إلی إحیاء الروح الوطنیّة وحثّ الشعب علی التمسّک بحقوقه وعدم الاستسلام للأعداء. یشیر الشاعر إلی الضعف فی فلسطین کی یستعید الشعب قوّتهم، ویکونوا قادرین علی التغلّب علی الأعداء بمســـاعدة بعضهم البعض وبتفعیل الروح الوطنیّة العالیة عندهم. یوقظ الشاعر نوعاً من الإحساس بالوطنیّة فی شعبه من خلال دعوة الناس وبثّ الحیاة فی فلسطین ووضعها فی موقف الضعف:

ویا کُلَّ طفلٍ، ویـــا کُلَّ کهلِ ویا کُلَّ لیثٍ، ویا کُلّ شـــبلِ
فلســـطین نادَتْ أیا کلّ أهلی فقالُوا سَمعنـــا... وأنت منانا

(رفیق، ٢٠١٣م: ٤٥٢)

هنا یتحدّث الشـــاعر عن القتل والمجازر الّتی فُرضت علی شـــعب هذه الأرض، حیث إن المعاناة والمِحن دفعت فلســـطین إلی منادات جمیع أبنائها، من الأطفال والشباب إلی الشیوخ والکبار، داعیةً إیّاهم للنهوض والعمل علی إنقاذها. لقد استجاب الشعب لندائها، فهبّوا إلی ساحة المعرکة دفاعاً عن أرضهم وبهذا الشکل، یمدح الشاعر تضحیات

الفلسطينيين. يتميّز هذان البيتان بروح حماسيّة ووطنيّة، ويُبديان التلاحم الشعبيّ والمقاومة الجماعيّة مستخدمينِ أسلوب النداء المباشر والصور القويّة لتدعيم الشعور بالمسؤوليّة تجاه الوطن. يسبغ تكرار أداة النداء "ويا" فى (ويا كُلَّ طفلٍ، ويا كُلَّ كهلِ، ويا كُلَّ ليثٍ، ويا كُلَّ شبلِ) "الإيقاع الموسيقيّ على الأبيات ويزيد من الحماسة والقوّة فيها. كما أنّ هذا النداء مع تكرار كلمة "كلّ" يضفى إحساساً بالحضور الجماعيّ ويشجّع على التفاعل العاطفيّ مع النصّ أى يشدّد على شموليّة الدعوة لجميع أفراد الشعب دون استثناء. يتطرّق الشاعر فى البيت الأول إلى تعظيم المناضلين عن طريق التشبيه، حيث يشبّه أطفال وطنه بالأشبال (صغار الأسود) والشيوخ بالليوث (الأسود البالغة) وذلک أنّ «الأسد فى الأدب العالميّ رمزٌ للقوّة والشجاعة» (سليمى وسليمى، ١٣٩٠ش: ١٦٥)، فاستخدام الليث (الأسد) والشبل (ابن الأسد) رمز للشجاعة والمقاومة، حيث يشير إلى قوّة الرجال وحماسة الشباب الصغار. جعل الشاعر فى البيت الثانى (فلسطين نادت) فلسطين شخصاً ينادى شعبه، وهى استعارة تجسيديّة تعطى الوطن طابعاً حيّاً يشعر بالنداء ويحثّ على الاستجابة.

يصف الشاعر صورة مأساوية قاتمة تظهر الفقر والمحنة فى فلسطين تحت الاحتلال مثل الدمار، والتهجير، والقتل، والتشريد. هذا الوصف ليس مجرّد نقل للمأساة، بل دعوة للشعب الفلسطينىّ والعالم العربىّ إلى التحرّک والنضال بوصفها نقطة إلهام الشعب للمقاومة:

دَنَسٌ على أرضى هنالک يَجْثُمُ فأنينُها نوحٌ يَبينْ فَيُكتَمُ
والعائدون بكلّ أرض شُرِّدوا والنذلُ بات بأرضهم يتنعمُ
زَرَعَ الجرائم،والرصاصُ نصيرُهُ فعلى جبين الشمس منهم جرائمُ
(رفيق، ٢٠١٣م: ٤٦١)

يشير معروف رفيق فى هذه الأبيات أيضاً إلى مظلوميّة وطنه وقساوة عدوّه بأسلوب خطابيّ صارخ يعتمد على ألفاظ مثيرة لمشاعر الألم والغضب مثل الدنس، والجرائم، والرصاص، والتشريد والأنين، والنوح. هذه الصراحة فى الخطاب من ميزات شعر المقاومة؛ فـ «لشعر المقاومة كما للخطاب القوميّ فى الحياة العربيّة المعاصرة صور

وتجلیّات بارزة منها السیاسیّ المباشر والإیدئولوجیّ أیضاً ومنها الإعلامیّ والحماسیّ.» (حلوانی، ٢٠٠٥م: ٢١٨) یستخدم الشاعر نبرة حادّة ومباشرة فی وصف الاحتلال وظلمه؛ فمن جهة یُبرز خبث الأعداء ومکرهم وخداعهم تجاه فلسطین، ومن جهة أخری یصوّر حال أبناء وطنه الّذین لم یعودوا یعیشون فیه. یذهب الشاعر إلی أنّ الوطنیین الحقیقیین (العائدون) قد شُرِّدوا وتعرّضوا للتهجیر، بینما بقی المحتقرون (النذل) فی الدیار. هذه الکارثة عظیمة لدرجة أنّها ترکت أثراً بالغاً کالبقعة علی جبین الشمس. إنّ الشطر الأوّل (دنسٌ علی أرضی هنالک یجثم) ینطوی علی استعارة تصوّر الاحتلال کأنّه دنسٌ قذر متشبّث بالأرض، ممّا یدلّ علی قمّة کره الشاعر له. ثمّ قوله (فعلی جبین الشمس منهم جرائم) استعارة أقوی تجعل جرائم الاحتلال واضحة مثل الشمس حیث یؤکّد استحالة إنکارها.

لا یکتفی الشاعر بوصف المعاناة فحسب، بل یقدّم رؤیة مستقبلیّة تعتمد علی قوّة الشباب وإرادتهم؛ فهو یعتقد أن هؤلاء الشباب، بروحهم الثائرة وإصرارهم، هم القادرون علی تحریر فلسطین من براثن الاحتلال. إنّ معروف رفیق فی العدید من قصائده الّتی تتناول الصمود والمقاومة، یتحدّث عن الشباب ودورهم المحوریّ فی استعادة فلسطین المحتلّة ویبشّر بالنصر بأیدیهم. فلا بدع فی ذلک أنّ شعراء المقاومة یعتقدون بأنّ «النصر آتٍ لا مناص علی أیدی شبابه الثائر إذ یقبلون هلی الموت سراعاً.» (ماضی، ٢٠١٣م: ٦٦) یذهب معروف رفیق أیضاً إلی أنّ الشباب الفلسطینیین یتمتّعون بنفس الصلابة والقوة الّتی تتمیّز بها الأرض الفلسطینیّة ولا یعرفون الیأس ولا یستسلمون للظروف:

هذی فلسطین وذاک شبابُها لا عاش فیهم یائسٌ یتجمجمُ

(رفیق، ٢٠١٣م: ٤٦٥)

هنا یعرب الشاعر عن اعتزازه بفلسطین وشبابها ویستخدم أسلوباً تحفیزیّاً یقوّی روح المقاومة والصمود مشدّداً علی عزیمتهم القویّة وإرادتهم الّتی لا تلین؛ هذه الصورة صورة مشرقة للشباب الفلسطینیین، تنفی عنهم الیأس والتخاذل وتحمل رسالة قویة مفادها أن شباب فلسطین لا یعرفون التردّد أو الخنوع، بل هم ثابتون فی طریقهم نحو الحرّیة بکلّ إصرار. یستخدم الشاعر فی قوله (لا عاش فیهم یائس) أسلوب نفی

قوى يعكس رفض الاستسلام واليأس بين الشباب الفلسطينيين. هذا الأسلوب تحفيزيّ وحماسيّ قائم على النفى القاطع لليأس وإبراز الصلابة والروح القتالية للشباب. هذه الصلابة تعكس إرادتهم القويّة ورفضهم للاستسلام، مهما كانت التحدّيات؛ لأنّهم لا يقفون مكتوفى الأيدى، بل يواصلون القتال بكلّ عزم وإصرار وبروح عالية وإيمان راسخ بحقّهم فى الحرّية، كما يرمز الشاعر فى فعل (يتجمجم) إلى التردد والخوف الّذى ينفيه عن شباب فلسطين تماماً وينصّ على أنّه لن يوجد بينهم من يتردّد أو يتلعثم خوفاً؛ فهم أقوياء فى مواجهة التحدّيات، ولا يسمحون للخوف أن يعيق طريقهم نحو الحرّية.

بـ: الوحدة العربيّة

يتناول الشاعر فى ديوانه المعنىّ قضية الوحدة العربيّة وتأثيراتها السياسيّة والاجتماعيّة فى العالم العربىّ؛ لأنّ «البعد العربى فى الأدب الفلسطينىّ كان دائماً ظاهرة أساسيّة وليس ارتباط أدب المقاومة الفلسطينىّ الراهن بهذا البعد وتعميقه ووعيه إلّا استمراراً لتلك الظاهرة تأريخيّاً.» (كنفانى، ١٩٦٨م: ٧٥) يطلق الشاعر فى عدّة مواضع من ديوانه على هذه الوحدة اسم الوحدة الكبرى ويجعلها كحلم عربى مشترك يتبدّل إلى غاية إستراتيجيّة بين البلدان العربية رغم كافّة التحدّيات الّتى تواجهها الدول المقاومة آنذاك:

قل للجزائر كم شهيدٍ قدّمَت ... تُجب الحقائقُ ألفَ ألفَ شهيدِ
سلْ ثالث الحرمين عن شَهدائها ... كم ودّعت من أسُدِها والصيد
لمن الضحايا؟ والدماءُ زكيةً ... لمن الجنودُ على الربا والبيدِ
لمن الحُداءُ وأغنياتٌ فى السّرى ... لمن القصائدُ إثْرَ كل قصيد
لليوم، هذا اليومُ أعظمُ شاهدٍ ... للوَحدةِ الكبرى، ليومِ العيد
(رفيق، ٢٠١٣م: ٤٥٧و٤٥٦)

يعبّر الشاعر من خلال هذا الجزء من القصيدة عن رؤيته العميقة لتأريخ النضال العربىّ، حيث يربط بين تضحيات الجزائر وفلسطين كرمزين للصمود والتضحية. هو لا يكتفى بذكر الماضى، بل يربطه بالحاضر، حيث يرى أنّ الدماء الّتى أريقت والأشعار

الّتی کُتبت هی من أجل بناء واقع عربیّ أفضل؛ فقوله (قل للجزائر کم شـــهید قدّمت؟) أسلوب اســـتفهام یوحی بکثرة الشهداء، ولا ینتظر إجابة، بل یبرز فداحة التضحیات. یذکر الشاعر الجزائر کنموذج للنضال والتضحیة، حیث قدّم شعبها العدید من الشهداء فی سبیل الحرّیة. هذه الإشارة تعکس تقدیر الشاعر للنضال الجزائریّ ضدّ الاستعمار. یستخدم الشاعر رمزیّة المسجد الأقصی والأسود (رمز الشجاعة والتضحیة) للتأکید علی أهمیّة الدفاع عن الأرض والمقدّســـات. هذه الرمزیّة تعکس ارتباط القضیّة الفلسطینیّة بقلوب العرب جمیعاً. بعد ذلک یطرح الشـــاعر أســـئلة تبتدئ بـ "لمـــن..." وتتکّرر فی الأبیـــات، لیجلی إصراره علی توضیح أنّ کلّ تلک التضحیات کانت من أجل التحریر والوحدة. سرّ جمال الاســـتفهام البلاغی فی شعر المقاومة خاصّة إعطاء الکلام حیویّة وروعة والزیادة من الإقناع والتأثیر وکذلک إثارة السامع واستقطاب عنایته وإشراکه فی التفکیر حتّی یصل بنفســـه إلی الإجابة.» (ملّابراهیمی، ١٤٣٧ق: ١٤٣) الإجابة الواضحـــة تدلّ هنا علی أنّ کلّ هذا من أجل عـــالم عربیّ الیوم، الیوم الّذی یُعدّ أکبر شـــاهد علی الوحدة العربیّة الکبری، والّذی یُشـــار إلیه باعتباره العید العربیّ. یعتبر الشـــاعر الوحدة العربیّة حلماً یمکن تحقیقه، ویشـــبّهها بالعید، ممّا یعکس تفاؤله وإیمانه بمستقبل مشرق للأمّة العربیّة.

یواصل الشـــاعر حدیثه عن تأثیر هذه الوحدة بین الدول العربیّة فی تحقیق النصر علی الأعداء ویکون متفائلا بذلک؛ فلا عجب فی هذه النظرة؛ إذ «کان شـــعر المقاومة وأدبها علی العموم متفائلاً منذ البدء.» (کنفانی، ١٩٦٨م: ٨٥) یشـــیر الشـــاعر إلی أنّ التضامن العربیّ لیس مجرّد فکرة أو شعار، بل هو قوّة حقیقیّة قادرة علی مواجهة الظلم والتحدّیـــات؛ فبفضل هذه الوحدة، یصبح العـــرب أکثر قدرة علی الدفاع عن أوطانهم وحمایة حقوقهم. یؤکّد الشـــاعر أنّ هذا التکاتف هو السلاح الأقوی الّذی یمکنه هزیمة الأعداء وإفشال مخطّطاتهم، وأنّه عندما تتوحّد الصفوف وتتعاضد القلوب، یتحقّق النصر وتستعید الأمّة مجدها وعزّتها:

والوحدةُ الکبری ستحرق باغیاً والقدسُ للأحـــرار لا لیهود

(رفیق، ٢٠١٣م: ٤٥٨)

يتحـــدّث هذا البيت عن الوحدة العربيّة الكبرى الّتى ســـتلتهم الظالمين وتضع حدّاً لعدوانهم. يؤكّد الشـــاعر أنّ القدس وفلســـطين تنتميان إلى شعبهما الفلسطينيين الّذين يعيشـــون فيها بكرامة وعزّة كالأحرار الحقيقيين، وليس للمحتلّين الإسرائيليين الّذين اغتصبوا الأرض وســـلبوا حقوق أهلهـــا. إنّ قوله (الوحدة الكبرى ســـتحرق باغياً) استعارة يتمّ فيها تصوير الوحدة بالنار الّتى تحرق الظالمين، ممّا يدلّ على قوّتها وتأثيرها الحتميّ فى مواجهة الاحتلال. فى الشطر الثانى جاء تعبيره (القدس للأحرار لا ليهود) توكيد مباشـــر ينير الهويّة الحقيقيّة للقدس، وربطها بالحرّية والنضال بدلاً من الاحتلال والعدوان. يعكس الشـــاعر فى هذا البيت إيمانه العميق بأن الحقّ لا بدّ أن ينتصر، وأنّ وحدة العرب هى السبيل لاستعادة فلسطين من أيدى الغاصبين.

فى موضع آخر من القصيدة، يشبّه الشاعر هذه الوحدة العربيّة الكبرى بنجم ساطع يضيء سماء الأمة. يعبّر هذا التشـــبيه عن انعدام الأمل الّذى تحمله الوحدة فى قلوب الشـــعوب العربيّة، فهى كالنور الّذى يبدّد ظلام الاحتلال والفرقة، وكالهدى الّذى يرشد الأمة نحو النصر والتحرّر، لكنّ هذه الوحدة ليســـت متاحة الآن؛ لذلك يحاول الشاعر أن يعبّر هذا المرّة فى الأبيات التالية عن الخذلان والإحباط فى تحقيق الوحدة الكبرى:

الوحدة الكبرى تلوح كنجمةٍ كيف السبيل لنجمة التوحيد
كنّـــا ظنّناهـــا تلـــوح قريبة فإذا بها تأبـــى على التحديد
(رفيق، ٢٠١٣م: ٤٥٩)

يعـــود معروف رفيق مرّة أخرى ليؤكّد على أهميّة الوحدة العربيّة الكبرى، مشـــبّهاً إيّاها بنجم متألّق يشـــعّ فى قلب العالم العربـــىّ وينير دربه ويقوده نحو العزّة والكرامة. مازال شعراء المقاومة يدعون إلى الوحدة لتضافر جهود الشعب وتضامنهم للوقوف صفّاً واحداً أمام خطط الأعداد والمحتلّين، ويحثّون على ترك أســـباب الفرقة والتشرذم؛ لأنّ هذا الوقف عصيب ومحتاج إل التوحّد والإخاء وتناســـق الصفوف. (مسمح، ٢٠٠٧م: ٥٣) يصرّ معروف رفيق أيضاً على ضرورة تواجد الوحدة ويقلق على غيابها، فيصوّرها كنجمة بعيدة المنال رغم قربها الظاهرى؛ من ثمّ يستهدف النجمة كرمز للوحدة الكبرى كى يعطى النصّ بُعداً فلســـفيّاً بشـــأن الصعوبات الّتى تواجه تحقيق الوحدة العربيّة أو

الإســـلاميّة، رغم الآمال الّتی انعقدت بها؛ فقوله (کیف السبیل لنجمة التوحید؟) سؤال یحمل فی طیّاته التعبیر عن الحیرة والبحث عن الحلّ لتحقیق هذه الوحدة، لکنّ الشاعر یقرّ بأن الوحدة ما زالت غیر محدّدة، غیر واضحة الملامح. یشـــیر الشاعر فی (فإذا بها تأبی علی التحدید) إلی استعارة تصوّر الوحدة ککائن یرفض التحدید أو الاقتراب کی یزید من مدی صعوبة تحقیقها.

یواصل الشـــاعر تصویره العاطفیّ لفلسطین، مشبّهاً إیّاها بجسد ینزف دما من قلبه، فی إشارة إلی معاناتها العمیقة وآلامها المستمرّة ویری أنّ السبب الوحید لهذه الجراح النازفـــة هو غیاب الوحـــدة العربیّة الکبری الّتی کان من شـــأنها أن تحمیها وتداوی جروحها:

مادام ینزف بالدمـــاءِ فؤادُهُ فالوحدة الکبری، سرابٌ مبهم

(رفیق، ٢٠١٣م: ٤٦٣)

یُعبّر هذا البیت عن اســـتمرار حالة الألم والخذلان الّتی کان قد تابعها الشاعر تجاه حلم الوحدة الکبری. الشـــاعر یربط بین نزیف الفؤاد بالدماء وبین اســـتحالة تحقیق الوحدة مشیراً إلی أن الوضع الحالی من الصراعات والنزاعات یجعل الوحدة الکبری مجرّد ســـراب لا یمکن تحقیقه. إنّ کلامه فی (ینزف بالدماء فؤاده) یضمن تشبیه فلسطین بجثمان إنســـان ینزف، هادفاً إلی الألم والمعاناة المستمرّة الناجمة عن استمرار الجراح والنزاعات فی الأمّة ســـواء علی مســـتوی الحروب أو الانقسامات السیاسیّة. یصف الشاعر فی الشـــطر الثانی الوحدة بأنّها سراب غامض، أی لا یمکن الوصول إلیها فی ظلّ هذا النزیف المســـتمرّ. یتبنّی الشـــاعر فی هذا البیت منظوراً مختلفاً وأکثر واقعیّة، حیث یعبّر عن شـــکوکه فی حقیقة هذه الوحدة؛ فهو یری أنه طالما أنّ قضیّة فلســـطین لا تـــزال قائمة، وأنّ هذه الأرض ما زالت تنزف وتُقدّم الشـــهداء، فإنّ الوحدة العربیّة الکبری تبقی مجرّد ســـراب غامض وغیر واضح المعالم. هذه الرؤیة تشاؤمیّة حزینة، إذ یستخدم الشاعر الجملة الشـــرطیة (ما دام ... فـ) لیوضح العلاقة بین استمرار النزیف واستحالة تحقیق الوحدة ثمّ یختمها بالجملة الاسمیّة (الوحدة الکبری سراب مبهم) لیشدّد علی ثبات واستمرار هذا الشـــعور بالضیاع واللاجدوی. بهذه الرؤیة النقدیّة، یتوصّل

الشـــاعر إلى أنّ الوحدة لا يمكن أن تكون حقيقيّة ما لم تتحقّق على أرض الواقع عبر أفعال ملموســـة، وليس فقط من خلال الشعارات، وأنّ الاختبار الحقيقيّ لوحدة العرب هو قدرتهم على تحرير فلسطين وإنهاء معاناتها.

ج: الجهاد

الجهاد هو محاربة الأعداء واســـتخدام القدرة والجهد باللســـان والعمل؛ فيعرف بـ «قتال من ليس لهم ذمّة من الكفّار.» (مصطفى والآخرون، ٢٠٠٤م: ١٤٢) يرتبط الجهاد فى أدب المقاومة بفكرة الكفاح المسلّح ضدّ أعداء الإسلام، وهو معركة تُخاض لإرضاء الله وتحقيق الأهداف الإلهيّة والإنســـانيّة لتحرير الشعوب من نير الظلم بحيث إنّ ترك الجهاد يؤدّى إلى الذلّ والهوان. يؤكّد معروف رفيق فى شـــعره دائماً على أهميّة الجهاد فى النضال، ويراه وســـيلة لاستعادة الحقوق المســـلوبة. لا يتناول معروف رفيق مفهوم الجهاد فى أشعاره من الناحية الدينيّة فحسب، بل يستخدمه كرمز للكفاح والنضال فى سبيل تحقيق العدالة واستعادة الحقوق:

إنّ الجهادَ طريـــقُ كُلِّ مضيّع والحقّ يُطلبُ بالسنان المُشرَع
بالنارِ بالدم بالجهـــادِ، بثورةٍ بأزيـــزِ طائرةٍ تبيـــد المدعى
(رفيق، ٢٠١٣م: ٤٥٥)

ظُهر هذا القطاع من الشعر نزعة حماسيّة وثوريّة، وقد يكون مستوحى من الأحداث السياسيّة أو النضالات الوطنيّة الّتى أثّرت فى الشاعر. يُبرز شعر المقاومة قيم التضحية والفداء، ويُذكّر الأجيال بحقوقهـــم المغتصبة وواجبهم فى الدفاع عنها، كما يعمل على اســـتنهاض همم الناس، وحثّهم على المشـــاركة فى النضال بكافّة أشكاله. (خضرى، ٢٠١٩م: ٩١) يؤمن الشاعر بأنّ الجهاد هو المسار الّذى يجب أن يسلكه جميع من سُلبت حقوقهم، وأنّ اســـتعادة الحقوق لا تتحقّق إلا عبر الجهـــاد. يجب أن يكون هذا الجهاد شـــاملاً، ومصحوباً بالنار، والثورة، والدم. هذا التعبير قويّ يوحى بأنّ النضال يجب أن يكون واسع النطاق، وعنيفاً، وثوريّاً. هنا يؤكّد الشاعر على أن الجهاد ليس مجرّد خيار، بـــل ضرورة حتميّة لكلّ من تعرّض للظلم؛ فيتمّ تصوير الجهاد على أنّه وســـيلة وحيدة

فعّالة لاســـتعادة الحقوق، وليس مجرّد نداء أخلاقيّ أو قانونيّ. شطر (إنّ الجهادَ طريقُ كُلِّ مضيّع) يدلّ على تعميم فكرة المقاومة بحيث لا تكون فرديّة بل جماعيّة وشاملة. من الواضح أنّ هذا المقطع ينتمی إلى أدب المقاومة أو الشـــعر الثوریّ، حيث يتمّ تســـليط الضوء على العنف كأداة للتغيير؛ من ثمّ يســـتخدم الشـــاعر كلمات مثل "النار، الثورة، الدم" ليعزّز الطابع الحماسيّ والملحميّ للنصّ، ممّا قد يعكس تجربة اجتماعيّة أو سياسيّة معيّنة.

لم يقتصر مفهوم الجهاد فی شـــعر المقاومة على حماية الأرض والوطن فحسب، بل امتدّ ليشـــمل أيضاً الدفاع عن العقيدة الإســـلاميّة والقيم الروحيّة الّتی تُشكّل هويّة الشـــعب الفلسطينيّ والعديد من الشعوب الإسلامية. (مسبوق واسدی، ٢٠١٥م: ١٠٧) يرى الشـــاعر فی موضع آخر أنّ الجهاد نابع من العقيـــدة العلويّة، وليس مجرد نتيجة للخطابات الحماسيّة. الشاعر يربط مفهوم الجهاد بالعقيدة العلويّة، أی بالمبادئ المرتبطة بأهل البيت، وخاصّة الإمام علی بن أبی طالب الّذی يُعرف بشجاعته ونضاله فی سبيل العدالة. يحثّ الشـــاعر أبناء وطنه على فهم الجهاد باعتباره التزاماً حقيقيّاً وليس مجرّد شعار أو انفعال عاطفيّ ويرفض فكرة أن الجهاد مجرّد شعارات أو خطابات حماسيّة، بل يراه التزاما إيمانيّاً وعقائديّاً:

يا إخوتـــی إنّ الجهادَ عقيدةٌ علويةٌ ليســـت بَخورا يُدْعَق
ليســـت بأقوال تفيض حماسةً ليست بما قال اللسانُ الأذلق

(رفيق، ٢٠١٣م: ٤٧٣)

تعكس الفكرة الواردة هنا منظوراً أيديولوجيّاً يرى فی الجهاد استمراراً لخطّ الإمام علـــيّ ونهجه فی مواجهة الظلم أی اعتبار القيم المرتبطة بالإمام علیّ (ع)، مثل الدفاع عن المظلومين، مقاومة الظلم، والتضحية فی ســـبيل الحقّ. يتبنّى الشاعر نهجاً توجيهيّاً ودّيّاً فی خطابه لمواطنيه؛ لأنّ اســـتخدام اللغة الوعظيّة والتشـــبيه يجعل الرسالة أكثر تأثـــيراً وإيحاءً بضرورة الفعل بدلاً من الكلام العنيف. يخاطب معروف رفيق أبناء وطنه بطريقة ودّيّة، ويؤكّد لهم بأســـلوب وعظیّ أن مسألة الجهاد عقيدة سامية، وليست أمراً يمكن استنشـــاقه كالبخور، بل يجب الوصول إليها عن وعی وإيمان صادق، وهی تتطلّب

الجهد والمثابرة؛ فيتكوّن أدب المقاومة فى الشـــعر «ضمن إطار من الالتزام بقدســـيّة الكلمة والإيمان الّذى لا يتزعزع بدورها وقيمتها والتمسّک بمسؤوليّاتها كسلاح أساسىّ فى حركة المقاومة الّتى تشـــمل معنى أوسع بكثير من محرّد المقاومة المسلّحة.» (كنفانى، ١٩٦٨م: ٧٥) يوضّح الشـــاعر أنّ الجهاد ليس مجـــرّد كلمات وخطابات تثير الحماس أو تُقال بلســـان فصيح، بل هو فعل يجب تحقيقه وتنفيذه؛ فقول الشاعر إنّ الجهاد ليس من أقوال تفيض حماســـة، تمييز بين الجهاد الحقيقىّ الّذى ينبع من الإيمان العميق، وبين التحريض العاطفىّ أو الشعارات الّتى قد تكون مؤقّتة.

يحاول الشاعر فى قصيدة أخرى تقديم تعريف مختلف للجهاد وإعادة تأطير مفهومه، فلا يعتبره مجرّد فكرة نظريّة أو شـــعارات حاملة للخطابات الفارغة، بل يجب أن يكون عملاً حقيقيّاً متناسباً مع الاتّجاهات الثوريّة والإصلاحيّة الّتى تنتقد الخطابات الفارغة وتدعو إلى العمل والتغيير الفعلىّ:

لغة الجهادِ، صَليل سيف مُصْلَتٍ لا ألْسنٌ سُـــلَّت من الأغمادِ
لغـــةُ الجهاد قَنابـــل ومدافع ودمٌ يراق وروعةُ استشـــهادِ
(رفيق، ٢٠١٣م: ٤٩٣)

يؤكّد الشـــاعر على قناعته بشأن الجهاد، مشيراً إلى أنّ الجهاد أشبه بصوت السيف المسلول من غمده، وليس كصوت اللسان الذى يُستلّ من غمده. فهو يرى أن لغة الجهاد هى لغة القنابل والمدافع والسلاح، والدم الّذى يُراق دفاعاً عن الوطن وتحريره، والجسد الّذى يتعطّش للشـــهادة. يعزّز الشـــاعر رؤيته للجهاد باعتباره خطوة عمليّة ولا مجرد خطاب أو نقاش فكرىّ، فى الواقع يستخدم الشاعر صوراً مجازية قوية لتوضيح الفرق بين الجهاد الحقيقىّ القائم على السلاح والتضحية، وبين الخطاب الّذى يفتقر إلى الفعل. هذا هو الكفاح المســـلّح فى فكرة المقاومة يعنى «العمل الهجومىّ بواسطة كافّة أنواع العنف المتاحة فى مواجهة الاحتلال وأحد أســـاليب المقاومة الّتى تعتبر هى الأخرى أسلوباً للحركات التحريريّة» (شـــيماء ويمينة، ٢٠١٩م: ١٠)؛ فقول الشاعر (لغة الجهاد قَنابل ومدافع) يشـــير إلى أنّ الجهاد لا يكون إلّا بالقوّة والصدام العســـكرىّ وكذلک قوله (دمٌ يراق وروعةُ استشـــهادِ) تأكيد على أنّ التضحية جزء أساسىّ من الجهاد، وأن

الفداء بالنفس مطلوب لتحقیق الحرّیة. هذا النوع من الخطاب الشعریّ یتماشی مع أدب المقاومة الّذی یمجّد القتال والتضحیة فی سبیل الوطن ویمکن أن یکون مرتبطاً بحرکة تحرّریة أو خطاب ثوریّ ضدّ الاحتلال أو الاستبداد حیث یتمّ التأکید علی القوّة کوسیلة لاستعادة الحقوق.

د: تکریم الشهید

إنّ الشهادة فی مختلف الأجیال العربیّة، سواء القدیمة أو الحدیثة، تُعدّ جزءاً أساسیّاً من النسیج الثقافیّ والتربویّ، حیث تعمّقوا فی جوهرها، وطبّقوها، ویسعون إلی تجسیدها فی واقع حیاتهم العملیّة؛ فإنّها شهادة یتسابق فیها المؤمنون بعضهم مع بعض بطریقة لا یفعلون مثلها لحیاة الدنیا وزینتها. (رزقة، ٢٠٠٤م: ٥١) الشهادة لیست مجرّد واقعة فردیّة، بل هی قیمة مترسّخة فی الوعی الجمعیّ العربیّ؛ فإنّها لیست مجرّد موت، بل هی انتقال من حیاة إلی حیاة أخری عند الله حیث یُمنح الشهید مکانة خاصة.

یستخدم الشاعر أوصافاً جمیلة فی مدح الشهداء تعبیراً عن مکانتهم الرفیعة وتضحیاتهم العظیمة، فیعتمد علی صور حیّة ومؤثّرة لإبراز قدسیة الشهادة ویمیل إلی مدح الشهداء وهو لیس مجرد تعبیر عن الإعجاب، بل وسیلة لإلهام الأجیال القادمة. یهدف الشاعر إلی جعل الشهادة قیمة یُحتذی بها، ولیس مجرد حدث مأساویّ وحینئذ یستخدم التشبیه والاستعارة لیجعل من الشهداء رموزاً للنور والتضحیة:

علی ثغره بسمةٌ کالصباح ومن دمه قبسٌ قد بدا
دعته فلسطین أنتَ الفتی وإنی أنا الأم، لبّ الندا
(رفیق، ٢٠١٣م: ٤٤٩)

یصف الشاعر الشهداء مشبّهاً ابتسامتهم بالصباح من حیث النور والجمال، ومشبّهاً دماءهم بشرارة النار المتوهّجة فی احمرارها وتلهّبها. هذا الأسلوب الأدبیّ یعزّز الارتباط العاطفیّ والروحیّ بین المجتمع وقیم الجهاد والتضحیة، من ثمّ یؤکّد الشاعر لمخاطبیه أن فلسطین قد نادت شباباً مثلکم، وأنّه من واجبنا تلبیة نداء هذه الأرض، والدفاع عنها وحمایتها. إنّ الشاعر الّذی یلتحم بمجتمعه ویکون واعیاً لما یجری حوله،

فإنّه يعبّر عن القيم الاجتماعيّة والإنسانية فى المجتمع بوصفه فرداً يبذل جهده ووقته ويضحّى بدمه ونفسه لدفع القهر والاضطهاد. (زعرب، ٢٠٠٨م: ٦٠) إنّ قول الشاعر (على ثغره بسمة كالصباح) تشبيه يبرز الأمل والإشراق حتى فى لحظة الاستشهاد، وكأنّ الشهداء يضيئون بدمائهم طريق الحريّة. وقوله (من دمه قبس قد بدا) تشبيه يوحى بالحيويّة والقوّة حيث يُصَوِّر الدماء وكأنّها شرارات تضىء مسيرة النضال وتلهب المشاعر. الشاعر لا يكتفى بوصف الشهداء، بل يخاطب جمهوره مباشرة، داعياً إيّاهم إلى استلهام روح الجهاد والتضحية. إنّ توجيه النداء إلى الشباب يحمل بعداً تعبويّاً، حيث يصوّر القضية الفلسطينيّة كواجب يجب الاستجابة له وذلک أنّ فلسطين ليست مجرّد أرض فى النصّ، بل رمز للكرامة والواجب، ممّا يجعل الرسالة ذات طابع وجدانىّ وقومىّ.

يبحث الشاعر فى الحديث عن الشهادة عن نماذج مثالية يحتذى بها جمهوره؛ لذلک يلجأ إلى من كانوا شعراء وشهداء فى آنٍ واحد. يمكن استخدام هؤلاء الأشخاص أن يثير التأثير العاطفى والروح الحماسية فى المخاطب سويّاً؛ لأنّهم لم يكونوا مجرّد منظّرين، بل دفعوا حياتهم ثمناً لمبادئهم. من شعراء كبار ربطوا فى تأريخ الأدب العربىّ والإسلامىّ الكلمة بالنضال، عبد الرحيم محمود بوصفه شاعراً فلسطينيّاً استُشهد فى معركة ضدّ الاحتلال وكان شعره وسيلة لإلهاب المشاعر وتحفيز الأجيال؛ لذلک يجعل معروف رفيق شعره صوته فى المقاومة:

شهيدٌ شاعرٌ والدهرُ يَروى قصائدَه الّتى تَرْوى صراعه
وجيلٍ قد تعلَّمَ مِن رُؤاهُ وقارعَ مثلَهُ منذُ اليفاعه
(رفيق، ٢٠١٣م: ٥٢٧)

يذكر الشاعر عبد الرحيم محمود بوصفه شاعراً شهيداً، حيث أصبحت الأيام نفسها راويةً لأشعاره. إنّ إدراج أسماء هؤلاء الشعراء يهدف إلى تقديم نماذج تربويّة وأخلاقيّة للقارئ، مما يدفعه إلى التأمّل فى معانى الجهاد والتضحية والشهادة. يجمع الشاعر هنا بين الهويّة الأدبية (الشاعر) والهوية النضاليّة (الشهيد)، مما يربط بين الكلمة والفعل وذلک أنّ عبد الرحيم محمود لم يكن مجرّد شاعر يكتب عن الجهاد، بل كان جزءاً منه،

حیث استشهد فی معرکة الدفاع عن وطنه. هذه الاستراتیجیة شائعة فی الأدب المقاوم، حیث یتمّ التركیز علی الشـــخصیات الّتی جسّـــدت مبادئها فی الواقع وأعطت الشعر مصداقیّة أكبر؛ لأنّ الشاعر الشـــهید لا یقول ما لا یفعل، بل یكون شعره صدی لحیاته واستشهاده. أســـلوبه یمزج بین الخطاب الحماسیّ والصور الشـــعریّة القویّة، مما یجعله نموذجاً للشاعر الّذی یؤمن بقضیّته حتّی آخر لحظة ویجسّد معانی الشهادة فی حیاته.

ز: رفض الشرق والغرب

یعبّر الشـــاعر عن رؤیته الواضحة لضرورة الاســـتقلال ورفض التبعیة للشرق أو الغرب. یری أنّ الاعتماد علی القوی الخارجیّة لیس حلّاً للمشـــاكل الداخلیّة، بل قد یـــؤدّی إلی مزید من التبعیّة وفقدان الهویّة؛ فیؤكّد أنّ الحلّ الحقیقیّ یكمن فی الاعتماد علی الذات والوحدة الداخلیّة، حیث یمكن للأمّة أن تحقّق النجاح والتقدّم دون الحاجة إلـــی دعم خارجیّ. هذا الموقف یُبرز من الشـــاعر موقفاً وطنیّاً وقومیّاً، ویعكس إیمانه بقدرة الأمّة علی مواجهة التحدّیات وتحقیق الاستقلال الحقیقیّ:

یا أمّتی... لا الشرق یَشْفی علّتی یا أمتی والغـــربُ هَدَّ تِلادی
فتحرّری یا أمّتـــی، وتحرّكی هُبی، فأقصی المسلمینَ یُنادی
(رفیق، ۲۰۱۳م: ٤۹۲)

هنا یتحدّث الشاعر عن عدم الارتباط بالشرق أو الغرب، ویعتقد أن هذا الارتباط لا یحلّ أیّ مشـــكلة. هو یری أن الاعتماد علی القوی الخارجیّة، سواء كانت شرقیة أو غربیّة، لیس حلّاً للقضایا الداخلیّة، بل قد یؤدّی إلی مزید من المشـــاكل ویفاقمها. هذا الموقف یعكس التزام الشاعر بالقیم الوطنیّة والثقافیّة ویدلّ علی إیمانه بقدرة الأمّة علی حلّ مشـــاكلها دون الحاجة إلی دعم خارجیّ. شعر المقاومة یتشاءم بالأجانب ویذهب إلی أنّ «المســـتعمر حینما یتطاول علی بلد یمحو الأمن ویجـــرّ الفوضی مرتدیاً لباس الصداقـــة.» (متّقی‌زاده وآخـــرون، ۲۰۱۵م: ۹٤و۹۳) فی هذا الموضع یخاطب معروف رفیق أمّته، داعیاً إیّاهم إلی عدم الاعتماد علی الشـــرق أو الغرب؛ لأنّ التأریخ یشهد بأنّ الاتّكال علی هاتین القوّتین لم یجلب لأی أرض سوی الخسائر. یحثّ الشاعر شعبه

علـــى الوقوف على أقدامهـــم والتحرّک إلى الأمام بإرادتهم الخاصّة، كما يشـــير إلى ضرورة الاهتمام بالمسجد الأقصى، مؤكّداً أنّه يجب أن يكون جزءاً أساسيّاً من السياسة الجماعيّة للمســـلمين فى جميع أنحاء العالم، إذ إنّه ملک لجميع المســـلمين. هذه الفكرة تعكس البعد الإسلاميّ للقضيّة الفلسطينيّة، حيث يعتبر الأقصى رمزاً للوحدة الإسلاميّة وضرورة الحفاظ عليه جزءاً من مسؤوليّة الأمة الإسلاميّة.

يحثّ الشـــاعر أمّته على اتّخاذ خطوات فعّالة نحو بناء مســـتقبل مستقل بعيداً عن تدخّـــلات القوى الأجنبيّة. هذه الدعوة تعكس رؤية إيجابيّة حيث لا يكتفى الشـــاعر بانتقاد التبعيّة، بل يطرح بديلاً يتمثّل فى العمل الذاتىّ والسعى نحو التقدّم. يعبّر الشاعر عن رفضه القاطع لأىّ سياســـة تعتمد على الصين وروسيا، معبّراً عن موقفه الحادّ تجاه هذه التبعيّة، كما يعتبر إســـرائيل سبباً فى نهب ثروات الدول الإسلاميّة وجلب الشقاء، لاســـيما لفلســـطين. هذا الموقف يتماشى مع رؤيته الســـابقة حول ضرورة الاستقلال السياســـىّ للدول الإســـلاميّة وعدم الارتهان للقوى العظمى ويعكس التزامه بالقضيّة الفلسطينيّة باعتبارها رمزاً للمقاومة ضدّ الاستعمار والاحتلال:

وصينـــىٌ، وروســـىٌ عميلٌ وآخرُ قـــد تأَمْـــرَکَ بالدُّلار
وإســـرائيلُ تحصدُ ما زرعْنا وتقطـــف ما رَعَيْنـــا مِن ثِمارِ
تُوسّـــع مِن مخطّطهـــا جهاراً وكانَت قبل تَعملُ فى استتار
(رفيق، ٢٠١٣م: ٥٦٦)

يعود الشاعر مجدّداً إلى القضايا السياسية، موصياً مخاطبه بأن للصين وروسيا عملاء فى الدول العربيّة، بينما تقوم الولايات المتّحدة بشـــراء ولاءات العديد من الأشخاص بأموالها. أما إسرائيل فإنّها تحصد ثمار تعب الفلسطينيين، وتأخذ كلّ ما زرعوه لأنفسها. هؤلاء الأعداء ينهبون المكوّنات الأساســـيّة للأمّة، أى إرثها الحضارى ثمّ يستخدمون نفس العقليّة الّتى ســـلبوها ليطوّروا شعوبهم. شعر المقاومة يلعب دوراً حاسماً فى تحذير الشعب من الوعود الكاذبة والمبادرات الخادعة الّتى يستخدمها الاستعمار أو الاحتلال لتحقيـــق أهدافه وإضعاف المقاومة (معروف وپورحشـــمتى، ١٣٩٦ش: ١٢١)؛ فيمكن اعتبـــار هذه الأبيات امتداداً لخطاب مقاوم أوســـع يرى فـــى الاحتلال والتدخّلات

الخارجیّة تهدیداً للهویّة والسیادة الوطنیّة؛ من ثمّ یصعّد الشاعر لهجته تجاه التبعیّة السیاسیّة مؤکّداً أنّ الاستقلال الحقیقیّ لا یکون فی التوجّه إلی الصین وروسیا، بل فی بناء سیاسة ذاتیّة مستقلّة. کما یسلّط الضوء علی الدور السلبیّ لإسرائیل فی المنطقة، مما یعکس موقفاً حادّاً ضدّ الاحتلال والهیمنة السیاسیّة والاقتصادیّة. رفض الاعتماد علی الصین وروسیا یشیر إلی وعی الشاعر بأنّ هذه القوی، مثل غیرها، قد لا تسعی إلا لتحقیق مصالحها الخاصّة علی حساب الدول الصغری. یُبرز الشاعر إسرائیل کعامل رئیسیّ فی أزمات العالم الإسلامیّ، وخاصّة القضیّة الفلسطینیّة. ترکیزه علی إسرائیل کعامل للنهب والشقاء یعکس رؤیة منتشرة حول واقع الاحتلال الإسرائیلیّ ویدلّ علی غایته فی الاستیلاء علی أراضی وثروات الفلسطینیین وسیاسة الاستیطان والاستغلال الاقتصادیّ. هذه الصورة تعزّز فکرة أنّ الظلم والاستغلال لا یتوقّفان من تلقاء أنفسهما، بل یحتاجان إلی مقاومة مستمرّة.

النتیجة

۱. یلجأ معروف رفیق إلی شعر المقاومة کأداة لتوعیة المجتمع وتجسید آلام المجتمع، ویُظهر التزامه بالقضیّة الفلسطینیّة فی دیوانه «فلسطین.. الجرح والطریق» بعناصر ومقوّمات المقاومة المختلفة الّتی تتراوح بین استدعاء المکان، واستلهام المعتقدات الدینیّة، ورفض السیاسات الوطنیة والعالمیة لإذکاء روح المقاومة فی النفوس.

۲. من أهمّ مقوّمات المقاومة فی هذا الدیوان استدعاء فلسطین، والوحدة العربیّة، والجهاد، وتکریم الشهداء، ومحاربة الکفر، ورفض السیاسة الانقیادیّة للشرق والغرب. تشکّل هذه العناصر إطاراً فکریّاً وثقافیّاً للمقاومة وتدوّی التزام الشاعر بقضیّة شعبه وأمّته.

۳. یقوم الشاعر باستدعاء فلسطین کقضیّة مرکزیّة تمثّل فلسطین جوهر المقاومة حیث یتمحور الدیوان حول الاحتلال والظلم الّذی تتعرّض له الأرض والشعب الفلسطینیّ. یُظهر الشاعر إلماماً عمیقاً بأوضاع هذه الأرض والعالم العربیّ؛ فهو

لا يقتصر على وصف المعاناة، بل يتناول الأبعاد السياسيّة والاجتماعيّة لها أيضاً.

٤. يدعو الشاعر إلى الوحدة العربيّة مؤكّداً أنّ التفرّق هو سبب ضعفها أمام الاحتلال ويرى أنّ الوحدة العربيّة هى الحلّ للخروج من مشاكل وطنه، تلك الوحدة الّتى نشأت منذ القدم بين الدول العربيّة والّتى يجب اليوم أن تحظى باهتمام أكبر وتعزيز أقوى. هذه الوحدة بين الدول العربيّة ليست عند الشاعر فكرة جديدة، بل لها جذور تأريخيّة، ولكن لا بدّ من إعادة إحيائها وتعزيزها.

٥. يُقدّم الشاعر نقداً لاذعاً للسياسات المتخاذلة الّتى تساهم فى إضعاف المقاومة الفلسطينيّة والعربيّة، ويرفض الاعتماد على الشرق أو الغرب؛ فهو لا يخدم مصلحة الوطن، بل يجعل الدول الصغيرة أداة فى يد القوى العظمى؛ فمن هنا يدعو إلى تحقيق الاستقلال الكامل عبر الإرادة الوطنيّة.

٦. يُؤكّد معروف رفيق على تحرير القدس ويرى أنّ هذا الأمر لا يمكن تحقيقه إلّا من خلال جهاد شامل وفعّال، وهو واجب فرضه الإسلام على المسلمين، كما يدعو شعبه إلى السير على درب الشهداء، ومواجهة الكفر، والمساهمة بأيديهم فى بناء نهضة الوطن.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

پورحشمتی، حامد؛ وکبری روشنفکر. (١٣٩٩ش). «جلوه‌های پایداری افغانستان در شعر جابر قمیحه، بررسی موردی دیوان (لِجهادِ الأفغانِ أُغَنِّی)». نشریة زبان و ادبیات عربی، السنة ١٢. شماره ١. صص ١٤٦-١٢٧

جمعة، حسين. (٢٠٠٩م). ملامح فى الأدب المقاوم فلسطين نموذجاً. دمشق: الهيئة العامّة السوريّة للكتاب.

حلوانى، فادية المليح. (٢٠٠٥م). «تجليّات ثقافة المقاومة فى الشعر العربىّ المعاصر». مجلّة العلوم الإنسانيّة. جامعة محمد خيضر بسكرة. العدد ٨. صص ٢٣٢-٢١٣

خضرى، على. (٢٠١٩م). «مظاهر أدب المقاومة فى شعر الشاعر الفلسطينى يوسف الخطيب». مجلّة اللغة العربية وآدابها، الجزائر. المجلّد ٧. العدد ١. صص ١١٠-٨٥

رزقة، يوسف. (٢٠٠٤م). أعلام شهداء المنطقة الوسطى. غزة: المكتبة المركزية.

رفيق، معروف. (٢٠١٣م). الأعمال الشعرية الكاملة. الطبعة ١. مصر: مكتبة جزيرة الورد.

زعرب، أحمد موسی. (۲۰۰۸م). الشهادة وتجلیّاتها فی الشعر الفلسطینیّ المعاصر بعد عام ۱۹٦۷. رسالة ماجستیر. الجامعة الإسلامیّة: غزّة.

سلیمی، علی؛ وفاطمه سلیمی. (۱۳۹۰ش). «بررسی تطبیقی نماد "شیر" در شعر نیما یوشیج و خلیل مطران (تأمّلی در نگاه متفاوت دو شاعر)». فصلنامه نقد و ادبیات تطبیقی. دانشگاه رازی. کرمانشاه. سال ۱. شماره ۲. صص ۱۷٤-۱۵۹

شکری، غالی. (۱۹۷۰م). أدب المقاومة. القاهرة: دار المعارف.

شیماء، بن سعید؛ وبوخنوس یمینة. (۲۰۱۹م). أدب المقاومة دراسة فی الجذور والآفاق. رسالة ماستر. الجزائر: جامة إبن خلدون بتیارت.

کنفانی، غسان. (۱۹٦۸م). الأدب الفلسطینیّ المقاوم تحت الاحتلال ۱۹٤۸ – ۱۹٦۸. الطبعة ۱. بیروت: مؤسّسة الدراسات الفلسطینیّة.

ماضی، أریج إبراهیم. (۲۰۱۳م). الاتّجاه القومیّ والدینیّ فی شعر أعلام المقاومة الفلسطینیّة دراسة تحلیلیّة. رسالة ماجستیر. الجامعة الإسلامیّة. غزّة.

متّقی‌زاده، عیسی؛ وإسماعیل حسینی أجداد؛ وحامد پورحشمتی. (۲۰۱۵م). «المقاومة فی الشعر الجزائریّ والإیرانیّ دراسة مقارنة بین مفدی زکریا وفرخی یزدی». مجلّة إضاءات نقدیّة. السنة ۵. العدد ۱۸. صص ۹۸-۷۷

مدنی، جلال الدین. (۱۳۹۲ش). مبانی کلیات علوم سیاسی. المجلّد ۱. تهران: پایدار.

المرعشلی، أحمد؛ وعبد الهادی هشام؛ وأنیس صائغ. (۱۹۹٦م). الموسوعة الفلسطینیّة. المجلّد ۲. الطبعة ۲. دمشق: هیئة الموسوعة الفلسطینیّة.

مسبوق، مهدی؛ وسارا اسدی. (۲۰۱۵م). «مظاهر المقاومة فی شعر ابن القیسرانی». مجلّة إضاءات نقدیّة. السنة ۵. العدد ۱۸. صص ۱۲۰-۹۹

مسمح، أیمن سلیمان. (۲۰۰۷م). الاتّجاه الاجتماعیّ فی الشعر الفلسطینیّ بین انتفاضتین (۱۹۸۷-۲۰۰۵م). رسالة ماجستیر. الجامعة الإسلامیّة. غزّة.

مصطفی، إبراهیم؛ وأحمد حسن الزیات؛ وحامد عبدالقادر؛ ومحمّد علی النجار. (۲۰۰٤م). المعجم الوسیط. الطبعة ٤. مصر: مکتبة الشروق الدولیّة.

معروف، یحیی؛ وحامد پورحشمتی. (۱۳۹٦ش). «النزعة الثوریّة وأصداءها الدلالیّة والفنّیّة فی شعر عبد الرحیم محمود». مجلّة دراسات الأدب المعاصر. السنة ۹. العدد ۳۳. صص ۱۲۵-۱۰۵

ملّاابراهیمی، عزّت. (۱٤۳۷ق). «الثراء الفنّیّ لأسلوب الاستفهام فی الشعر الفلسطینیّ المقاوم». مجلّة آفاق الحضارة الإسلامیّة. السنة ۱۹. العدد ۱. صص ۱٤۵-۱۲۳

الملائکة، نازک. (۱۹۸۱م). قضایا الشعر المعاصر. الطبعة ٦. بیروت: دار العلم للملایین.

الهذلی، أبوذؤیب. (۲۰۱٤م). دیوان أبی ذؤیب الهذلی. الطبعة ۱. مصر: مرکز الدراسات والبحوث الإسلامیّة.